﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾

[القصص: 59]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانٌ لعناية الله تعالى بعباده، إثرَ بيانِ إهلاكِ القُرى المذكورةِ

بعد أن أخبرَ النَّظمُ الجليل أنَّ الله تعالى أهلكَ كثيرًا منَ الأقوام الذين كفروا بنعمته تعالى، أتبع ذلك ببيان عدله، وأنَّه لا يُهلك أحدًا إلّا بعدَ الإنذار، وقيام الحُجَّةِ بإرسال الرُّسلِ مُبشِّرين ومُنذرين، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾، ثمَّ أتْبَع ذلك ببيان أنَّ من سُنَّته تعالى أنَّه لا يُهْلِك القُرى بعد تلك الرِّسالات إلّا في حالة ظُلم النّاس لأنفسهم؛ بتكذيبهم وكفرهم، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡعَثَ﴾: (بعث) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ إثارةُ الشَّيء وتوجيهُهُ[2]، والبَعْثُ في كلامِ العَرَبِ على وجهَين، **أحدُهما:** الإرْسال، كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: 103]، مَعْناهُ: أرسلنا، **والآخر:** إثارةُ بارِكٍ أو قاعِدٍ، تَقولُ: بَعَثْتُ البَعيرَ، فانبَعَثَ، أي: أثَرْتُه، فَثار، والبَعْثُ أيضًا: الإحياءُ مِنَ اللهِ للمَوْتى، ومنهُ قَولُهُ تعالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ [البقرة: 56]، أي: أحييناكم، وبَعَثَ اللهُ الخَلْقَ يَبْعَثُهُم بَعْثًا: نَشَرَهم، والبَعْثُ: الرَّسولُ، والجَمْعُ بُعْثانٌ، والبُعوثُ: الجُيوش، وبَعَثَه على الشَّيْءِ: حَمَلَهُ على فِعْله، وبَعَثَ عليهِمُ البلاءَ: أحَلَّهُ، وانْبَعَثَ الشَّيءُ، وتَبَعَّثَ: انْدَفَع، وبَعَثَه

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 20/ 76 - 77.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).

مِنْ نَوْمه بَعْثًا، فانْبَعَثَ: أيْقَظَه، وأهَبَّه[1]، والمقصود بالبَعْثِ في الآية: الإرسال.

2) ﴿أُمِّهَا﴾: (أمم) الأصلُ والمَرجعُ، يُقالُ لكلِّ ما كان أصلًا لوجودِ شيءٍ أو تربيتِه أو إصلاحِه أو مبدئِه: أُمٌّ[2]، والمَقصودُ بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ على وجهين؛ **أحدهما:** أنَّه أرادَ أعظمَها وأكثرَها أهْلًا، **والآخر:** أرادَ مَكَّة، وقيل: سُمّيت أُمًّا؛ لأنَّها أقْدَمُ القُرى الَّتي في جزيرَة العَرَب وأعظمُها خطرًا، فجُعِلت لها أُمًّا لِاجتماع أهْلِ تلكَ القُرى كُلَّ سَنَةٍ، وانكِفائهم إليها، وتعويلِهم على الاعتصام بها؛ لما يَرجونَه من رحمة اللّه تعالى[3]، وعليه فالمُراد بـ﴿أُمِّهَا﴾ في الآية: أصلُها وأعظُمها على العموم، أو على الخصوص، وهي مَكَّة أمُّ القُرَى.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول الحقُّ سبحانه: ولم يكُنْ ربُّك يا محمَّدُ ﷺ ليُهلِكَ القُرى حتَّى يَبعَثَ في أعظَمِها وأصْلِها الَّذي تَتْبَعُه القُرى رَسولًا يَتْلو على أهلِها آياتِ اللّهِ الدّالَّةَ على صِدقِ رِسالتِه، فيُقيمَ الحُجَّةَ عليهم، وما كُنّا لِنُهلِكَ القُرى إلّا وأهلُها مُستَحِقّون للهَلاكِ؛ بسبَبِ اتِّصافِهم بالظُّلمِ - بالكُفرِ وغيرِه - وذلك مِن بَعْدِ الإعذارِ إليهم[4].

اللّهُ تعالى لا يُعَذِّب أحدًا إلّا بِظُلمه، وإقامة الحُجَّة عليه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

لمّا ذَكَر تعالى إهلاكَهُ القُرى واستئصالَ أهلِها، فكأنَّه قيل: هل يهلكُهم

بعد ذِكْرِ الإهلاك؛ شرعَ ببيان العدلِ فيه

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 334، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أمم).

(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أمم).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 291، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 293، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 330، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 621.

بلا إنذارٍ؟ وهل يُهلِكُهم، وهم عادِلون في حالة كفرهم؟ فقيل: إنَّ الله لا يُهلِك قومًا إلّا بعدَ بَعْثِ رسولٍ فيهم، ولا يهلِكُهم إلّا وهم ظالمون؛ فكان الظّاهرُ على هذا غيابَ الواو، ولكن جاءت الواو على خلاف الأصل؛ لأنَّ الواو لا يبرحها معنى المغايرة، فتدلُّ على استقلال ما بعدَها نوعَ استقلال؛ لتنبيهِ الكافرين على أنَّ فرصة ديمومة النِّعَم لا زالت بين أيديهم وفي مُكنتهم؛ إذا هم استجابوا لرسولهم، وآمنوا بالآيات التي يتلوها عليهم، وعلى أنَّ الحُجَّة قائمةٌ عليهم، فلَهُ تعالى أن يُقيم عدلَه فيهم بإهلاكهم، وإنَّما أحسن تعالى إليهم بالإبلاغ في تنبيههم على ذلك.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الكون منفيًّا في ﴿وَمَا كَانَ﴾:

رسـوخُ سُـنَّـة العدلِ الإلهيّ

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بنفي فعل الكون في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ لتأكيد النَّفي للدَّلالة على رسوخ هذه السُّنَّة واطِّرادها، أي: وما صَحَّ، وما استقام، بل استحالَ هذا الإهلاك المقيَّد في سُنَّته المَبنيَّةِ على الحِكَم البالغة[1]، وجيءَ بالفعل بصيغة الماضي للدَّلالة على الحُكم السّابق، أي: "ما كان في حُكمه الماضي وقضائه السّابق أن يُهْلِكَ القُرى قبلَ الإنذار"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بعنوان الرُّبوبيَّةِ وإضافته:

ربُّكَ الذي سبق إحسانُه إليكَ ربٌّ عادِلٌ حكيم

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الرُّبوبيَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ المُحْسِنَ إليكَ بالرِّسالة، هو القادِرُ على إهلاك الأُمم، وأنَّه قد أحسنَ إلى قومِكَ ببعثتك فيهم، وأنتَ حُجَّةُ اللهِ ورحمتُه فيهم، والتَّعبيرُ بالرَّبِّ هو المناسبُ لسياق الرَّحمة بالإرسال، وقد أضافَه إلى ضمير المخاطَب إيماءً إلى أنَّ المُراد بهذا الإنذار قومُ النَّبيِّ ﷺ الذين كذَّبوه[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 302، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 152.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 305.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 507، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 153.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإهلاك مادة وصيغة:

هـلاكُ القـريـة بإفساد مُقوِّمات الحياةِ فيها

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الإهلاك في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ لما في الإهلاك من دلالةٍ على إفساد العيش، فإنَّ هَلاكَ الشَّيءِ يكون باستحالة الحياة فيه؛ لإفساد مقوِّماتِها فيها، فأخبر تعالى بالإهلاك عن تخريب ديارهم، واستحالتِها خاويةً خَرِبةً، والعذابُ المقصود في الآية هو عذابُ الاستئصال، وهو المقصودُ المُستَدَلُّ على كونه كذلك في الآية السّابقة، ويُؤيِّد ذلك صياغةُ الإهلاك في قوله: ﴿مُهۡلِكَ﴾ مِن الفعل الرُّباعيِّ: (أهلك)، لا مِنَ الثُّلاثي: (هلك)، وهو يُعبَّر عنه بالإهلاك، لا بالتَّدمير.

دلالةُ الجمع في ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ وتعريفها:

إهـلاكُ القُـرى حـتّـى كـأنْ لم تَـغْـنَ بالأمس عِـبرةٌ لكـلِّ مَن يشاهدُ آثارها

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ القرية مجموعةً مُعرَّفةً بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ للدِّلالة على جنس القُرى، أي: إنَّ الله تعالى يُهْلِكُ أيَّة قريةٍ كائنةٍ من هذا الجنس[1]، والتَّعبير بلفظ القرية يُطلَق على مَنزل النّاسِ الذي يتجمَّعون للعيش فيه، في بيوتٍ مَبنيَّةٍ، وإنَّما خَصَّ القرية بالذِّكر هنا؛ لأنَّ الاعتبار والاتِّعاظَ بإهلاكها أبلغُ؛ وذلك لأنَّ آثارَ البيوت تبقى، فيشاهدُها سائرُ النّاس[2]، وعبَّر النَّظمُ بصيغة الجمع للدَّلالة على عموم الحُكم ونفاذِه في سائر القُرى، فيتناسَبُ مع التَّعريف بالجنس، كما أنَّه يَدُلُّ على أنَّ إهلاكَه القُرى قد ينالُها في حالة الجَمْع، أي: يُهْلِكُها جميعًا دفعةً واحدةً.

بلاغةُ المجازِ في ﴿مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾:

اشـتـدَّ الإهـلاكُ حـتّـى شَـمِـلَ المنازلَ وسُكّانَها

سلَّط النَّظمُ الجليل الهلاكَ على القرية، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾، وإنَّما المُهلَكُ أهلُها؛ إشارةً إلى شِدَّة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 330.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 152.

الإهلاكِ، فهو بحيثُ إنَّهُ قد أتى على النّاس والدّيار، وهو الإهلاكُ بالحوادث التي لا تستَقِرُّ معها الدّيارُ، بخلاف إهلاكِ الأُمَّة، فقد يكون بطاعون ونحوِه، فلا يتركُ أثرًا في القُرى[1].

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ في ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ﴾:

لا يقع الإهلاكُ إلى أن يقعَ إرسالٌ، ثمَّ تكذيبٌ وظُلمٌ

عبَّر النَّظمُ الجليل بالحرف الدّالِّ على الغاية ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾؛ للدِّلالة على أنَّ تحقُّق البعثِ هو غايةٌ لعدمِ وقوعِ الإهلاك، فلا يقعُ إهلاكٌ حتّى يقعَ بعثٌ، وذلك للتعبير عن رحمته تعالى وعدلِه، وإنَّما كان ذلك لإقامةِ الحُجَّة عليهم، وقطعِ أعذارهم بأن يقولوا: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [القصص: 47][2].

دلالةُ التَّعبير بالبَعْث دونَ الإرسال:

توجيهُ الرَّسولِ المُحَمَّلِ برسالةٍ يتضمَّن إحياءَ النّاس

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ البعث في قوله جلَّ شأنه: ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾، مع أنَّ المفعول به جاء بلفظ الرِّسالة، فلم يقل: (حتّى يرسل رسولًا)؛ لأنَّ البعث يَدُلُّ على إثارة الشَّيءِ وتوجيهِه، ومنه: بعثَ الإنسان في حاجة[3]، فهو أعَمُّ منَ الإرسال؛ لأنَّ الإرسالَ هو بَعْثُهُ في رسالة، أمّا البعثُ؛ فهو عامٌّ، ولعلَّ فيه إشارةً إلى أنَّ البعثَ يدلُّ على بعث الحياة بعدَ الموت، فكأنَّ الرَّسولَ يُعيدُ القريةَ إلى الحياة بالإيمان، بعد موتِها بالكُفر والشِّرك.

دلالةُ المضارعة في ﴿يَبۡعَثَ﴾ بعد المُضِيِّ:

سُنَّةُ اللهِ تعالى في إقامة الحُجَّة وتحقيقِ العَدْلِ دائمةٌ مستمرَّةٌ

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالمضارع بعد التَّعبير بالكون الماضي في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾؛ للدِّلالة على استمرار تلك السُّنَّةِ الرّاسخةِ، فلا يَصِحُّ على الدَّوام في سُنَّة الله تعالى إيقاعُ الإهلاكِ بلا بَعثِ رسالةٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 153.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 305.
(3) الرّاغب، المفردات: (بعث).

وأمّا فعلُ الكون؛ فهو متعلِّقٌ باللّه رأسًا، على معنى أنَّ ذلك صفةٌ له أزليَّةً.

بلاغةُ التَّعبيرِ عن كُبرى القُرى بالأُمِّ:

لكلِّ مجموعة منَ القُرى بلدةٌ هي أصلُها ومَرجِعُها؛ لأنَّها أعظمُها

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ (أمٍّ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾؛ للدِّلالة على أنَّها القريةُ العظيمة من تلك القرى، كمكَّةَ التي هي أعظمُ بلادِ العرب شُهرةً، وأكثرُها زوّارًا؛ وذلك لتعظيمهمُ الكعبةَ، وحَجِّهم إليها[1]، ولأنَّ أهل هذه القرية الأمِّ أكثرُ فطنةً وكياسةً، وأقربُ لقبول الدَّعوة[2]، وفي التَّعبير بها إبلاغٌ في إقامة الحُجَّة على أهل القُرى الأُخرى؛ لأنَّ أصلَ القُرى وأساسَها قد لا يكون أعظَمها، و"لأنَّ القريةَ الكُبرى هي مَهْبِط أهلِ القُرى والبوادي المُجاورةِ لها، فلا تخفَى دعوةُ الرَّسول فيها، ولأنَّ أهلَها قدوةٌ لغيرهم في الخير والشَّرِّ، فهُم أكثرُ استعدادًا لإدراك الأمور على وجهها"[3].

موقعُ جملة ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾:

من صفات الرَّسولِ أنَّه يتلو الآياتِ ويوضِّحها للعباد

وصف النَّظمُ الجليل الرَّسولَ المبعوثَ بالجملة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ﴾، فهو متَّصفٌ بكونه يتلو عليهم الآيات[4]، وإنَّما وصفه بذلك؛ تعبيرًا عن قيام الحُجَّة عليهم، وإلزامِهم به، وتحقيقًا للغاية من بعث الرَّسول، وهي تلاوة الآياتِ والتَّذكيرِ بها، وقطعًا للمَعذرة بأن يقولوا: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [القصص: 47][5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالتِّلاوة دونَ القراءة:

تلاوةُ القرآنِ واتِّباعِ هديه صفةٌ للرَّسول

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ التِّلاوة دون القراءة في قوله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 152.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 305.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 152.
(4) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/ 278.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 302.

جلَّ شأنه: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾؛ لأنَّ التِّلاوة أخصُّ مِنَ القراءة؛ لدلالتها على الاتِّباع بعد القراءة، وهي مختصَّة باتِّباع كُتُبِ اللهِ المُنزَّلة، بقراءتها ومتابعةِ ما فيها من أمر ونهي وترغيبٍ وترهيب، وإنَّما يُقال في القرآن في شيءٍ؛ إذا قرأتَه: وجبَ عليكَ اتِّباعه[1]، فهو يتلوها عليهم تلاوةً تُفْصِح عمّا في الآيات مِنَ الحِكمة؛ بما لها مِنَ الجَري على مناهج العقول، وبما لها مِنَ الإعجاز، على تَفرُّدِ الكلمة، باهرِ العظمة؛ إلزامًا للحُجَّة، وقطعًا للمَعْذِرة[2].

نُكْتَةُ تقييدِ التِّلاوة بالجارِّ والمجرور:

رسـولُ اللـهِ لا يألون جهدًا في توصيل الرِّسالة على أكمل وجهٍ وأتمِّه

الضَّميرُ في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عائدٌ إلى المعلوم مِنَ القُرى، وهو أهلُها، وقد قَيَّد النَّظمُ الجليل فعلَ التِّلاوة بحرف الاستعلاء (على)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾؛ للدِّلالة على تمكُّن تلاوةِ الرَّسول من قومه؛ إبلاغًا في إقامة الحُجَّة عليهم، فهو يتلو عليهم الآياتِ، ويُبلِّغهم الحُجَجَ تبليغًا يُقيمُ عليهم الحُجَّة، بحيث لا يبقى لهم نوعُ عذرٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالآيات في ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

الآيـاتُ الـدّالَّـةُ على الحَقِّ كثيرةٌ شاخصة

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالآيات بصيغة الجمع، في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾؛ للدِّلالة على كثرتها وتَعَدُّدِها وتَنَوُّعِها؛ بحيثُ يكون لكلِّ فَردٍ مِن أفراد القُرى نصيبٌ قويٌّ مِنَ الفهم في الآيات، وفي ذلك تأكيدٌ على إقامة الحُجَّة وإسقاطِ الأعذار، وفي كون الآيات جمعَ قِلَّةٍ إشارةٌ إلى كمال ظهورِ الأُلوهيَّة فيها؛ مِمَّا ميَّزَها وجعل لها خصوصيَّةً في نفسها، شأنُ كلِّ قليلٍ، فتلك الآيات تنطق بأنَّها مِن عند اللهِ ربِّ العالَمين.

(1) الرّاغب، المفردات: (تلو).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 507.

نُكْتَةُ إضافةِ (آيات) إلى ضمير العَظَمة:

آياتُ الله تعالى جديرةٌ بالإفهام والاتِّعاظ

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الآيات إلى ضمير التَّعظيم في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾؛ للدِّلالة على أنَّها آياتٌ عظيمة، بحيثُ إنَّها تُقيم الحُجَّة، وتَدُلُّ على المُراد منها أبلغَ دلالةٍ، وفي التَّعبير بضمير المُتكلِّم التفاتٌ مِنَ الغَيبة إلى الخطاب؛ تربيةً للمَهابة، وإدخالًا للرَّوعة[1].

معنى (الواو) في: ﴿وَمَا كُنَّا﴾:

انتفاءُ الإهلاكِ بلا أسبابه أمرٌ مؤكَّد

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾، على الجملة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾، وفائدة هذا العطف: تأكيدُ المعنى في الجملة المعطوف عليها، أي: وما كنّا مهلكي القرى إلّا بتكذيبهم وإعراضهم[2]، ومعنى هذه الجملةِ يَلْزَمُ معنى ما قبلَها، فإذا بعثَ الله في أُمِّ القُرى رسولًا يتلو على أهلِها آياتِ الله، ووصل ذلك أهلَ القُرى الأُخرى، بحيثُ قد قامت حُجَّة الله عليهم، كما قامت على أهل أُمِّ القُرى، فإذا أهلك الله تلك القُرى وأهلَها؛ فلأنَّهم لم ينتفعوا بتلك الآيات، بأن ظلموها، وظلموا أنفسَهم، وأصرّوا على الكفر والشِّرك والعِناد؛ فكان الظّاهرُ غيابَ الواو؛ لما بينهما من كمال الاتِّصال، مِن نوع التَّوكيد المعنويِّ، والعطفُ لا يبرح الواوَ، فلما جاءت على خلاف الأصل مشعرةً باستقلال ما بعدَها نوعَ استقلالٍ؛ نبَّهت بقوَّة على معنى إهلاك القرى، وأنَّ هذا الإهلاكَ مؤسَّسٌ على ظُلم أهلِها، أي: نبَّهت على معنى ظُلم أهلِها، وهو شِركُهم؛ إيقاظًا لهم من غفلتهم، وإحسانًا إليهم مِن أجل نبيِّهم محمَّد ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكون الماضي في: ﴿وَمَا كُنَّا﴾:

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بفعل الكون بصيغة الماضي في قوله

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 306.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 425.

جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾؛ للدِّلالة على رسوخ الحُكم في سابق قضائه، بأنَّه لا يهلك القُرى إلّا في حالة ظُلمِهم[1]، وهذه الكلمة تنطِق بالأُلوهيَّة؛ لأنَّ الذي مِن شأنه أن يُهْلِك هو اللّه، سواء كان ذلك بسبب أم بغير سبب، وكذلك الذي مِن شأنه أن يُرتِّبَ الجزاءَ على السَّبب؛ إبرازًا للعَدل والحِكمة هو اللّه، فمادَّةُ الكونِ تُمَكِّن الدَّلالة على الأُلوهيَّة، بزيادة الإفصاح عنها.

حُكم العدالةِ راسخٌ في سُنن اللهِ تعالى

دلالةُ إسنادِ الفعل إلى ضمير العَظَمة في ﴿كُنَّا﴾:

جرى إسنادُ الكون إلى ضمير العَظَمة في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا﴾ على نسق إسناد الآيات إليه في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ والعدولُ هنا في الإسناد إنَّما هو عنِ الرَّبِّ؛ إذ قال تعالى في صدر الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ نظرًا إلى رحمته وإحسانه بإرسال الرُّسل والآيات، وهنا قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ﴾؛ لأنَّه قال: ﴿إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾، أي: ظالمون بعد ما أرسلنا إليهم الرُّسلَ والآياتِ، وبعدَ ما ذَكَّرناهم بالنِّعم والنِّقم، فقد أصَرّوا على الشِّرك مُتَجَرِّئين على مقام الأُلوهيَّة، فعوقبوا بأن كان إهلاكُهم مشتملًا على شيء مِن عظمة الأُلوهية، فلمّا لم يُؤمنوا بها، ولم ينقادوا لها؛ ليدومَ لهم النَّعيمُ؛ عُذِّبوا بها، وذلك آلَمُ وأفظعُ عندهم.

دلالةُ التَّعريف في ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ وجمعها:

عرَّف النَّظمُ الجليل ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ بالألف واللّام، وجاء بها بصيغة الجمع في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه حُكم عامٌّ في كلِّ القرى، وتعريفُها تعريفُ الجِنس، أي: كلُّ قريةٍ منَ القُرى فهي مُضَمَّنة في هذا الحُكم، وإنَّما قال تعالى: ﴿مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ مع أنَّ الظّاهر أن يقال: (مهلكيها)؛ لأنَّه قال مِن قبلُ: ﴿وَمَا

كلُّ قريةٍ آمنة حتّى تكفر بدعوة ربِّها

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 424.

﴿كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الله يُمْهِل، ولا يُهْمِل، فهو رقيبٌ عليهم، ولا تخفى عليه خافيةٌ مِن خفاياهم وأحوالِهم، وهذا أبلغُ في التَّهديد والوعيد.

معنى ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾:

عبَّر النَّظمُ الجليل بأداة الاستثناء ﴿إِلَّا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾؛ للدِّلالة على استثناء الأحوال، أي: وما كنا في حال مِنَ الأحوال مُهلكي هذه القرى، إلّا في حال ظُلم أنفسِهم، بتكذيبهم وإشراكِهم بالله تعالى[1].

عـــدمُ إهـــلاكِ القُرى مشروطٌ بانتفاء وقـوعِ الظُّلم

معنى (الواو) في ﴿وَأَهۡلُهَا﴾:

صَدَّر النَّظمُ الجليل الجملةَ بالواو الحاليَّة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾، أي: ما كنّا مُهلكي هذه القُرى في حالٍ إلّا حالَ ظلمِهم، وفائدةُ هذه الحالِ تنزيهُ اللهِ تعالى أن يُهْلِكَ عبادَه، وهم غيرُ ظالمين[2].

الظُّلمُ هلاكٌ في الدُّنيا، وظُلماتٌ يومَ القيامة

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفردة ﴿وَأَهۡلُهَا﴾:

صرَّح النَّظمُ الجليل بأهل القرى، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾، دون أن يقول: (وهي ظالمة)، فعبَّر بطريق الحقيقة لا المجاز؛ للدَّلالة على تأكيد وقوعِ الظُّلم من أهلها.

تـأكـيـدُ وقـــوعِ الظُّلم من أهل القُرى

دلالةُ الإضافة في ﴿وَأَهۡلُهَا﴾:

أضافَ النَّظمُ الجليل لفظَ الأهلِ إلى ضمير القرية في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ الظُّلمَ المُعْتَبر هو ظُلْمُ أهلِ القرية، فهم لا يُؤاخَذون بظُلم مَن مَرَّ بهم، أو سكنَ عندهم، حتّى يكونَ من أهل القرية، وفي الإضافة

قـد لا يـصيبُ عـقـابُ الـظُّـلـم الظّالمَ وحْدَه

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 425.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 424.

في نور سياق المعنى: أنَّ أهلَ القريةِ سببٌ في هَلاكها، فلم يَظْلِموا أنفسَهم فقط، وإنَّما ظلموا القريةَ أيضًا.

دلالةُ التَّعبير بالظُّلم مادة وصيغة:

إذا صار الشِّرك صفةً راسخة في النّاس، فقد دنا إهلاكُهم

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الظُّلم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾؛ للدِّلالة على وضعهمُ الأشياءَ في غير موضعها، كعبادتهمُ الأصنامَ وتركِهم عبادةَ اللّهِ تعالى وتوحيدَه؛ ولهذا لم يُذْكَر له متعلِّق؛ إذ ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ معناه: مشركون، وجاء التَّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل للدَّلالة على أنَّهم عريقون في الظُّلم بتخلّيهم عن داعي الإيمان[1]، وأنَّ صفة الظُّلمِ قائمةٌ بهم لا تُفارِقُهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإهلاكُ والتَّدمير:

الهلاكُ الفسادُ وإعدامُ الشَّيء، والتَّدمير دخولُ الهلاكِ لمكان ما

الهَلاكُ يَدُلُّ عَلَى كَسْرٍ وسُقوطٍ، ولِذَلِكَ يُقالُ لِلمَيِّتِ: هَلَكَ[2]، والهلاك: بُطْلانُ الشَّيء منَ العالَم وعَدَمُه رأسًا، وذلك المُسَمّى فناءً المُشارُ إليه بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88]، ويقال للعذاب والخَوف والفقر: الهَلاكُ، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [مريم: 74]، ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ [الأعراف: 4]، وهلاكُ الشَّيءِ باستحالةٍ وفسادٍ، كقوله: ﴿وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: 205][3].

وأمّا التَّدميرُ؛ فهو يَدُلُّ عَلَى الدُّخولِ في البَيْتِ وغَيْرِهِ[4]، أي: إدخالُ الهَلاكِ على الشَّيء[5]، وعَبَّر في الآية الكريمة بالهلاك؛ لأنَّه أراد إزالةَ تلك القُرى وإفناءَ وجودِها، والهَلاكُ الذي في هذه الآية هو هلاكُ الاستئصال، وهو الهلاكُ المَذكورُ في الآية السّابقة في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 330.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).
(3) الرّاغب، المفردات: (هلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دمر).
(5) الرّاغب، المفردات: (دمر).

قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾، وفي تفسير هذه الآية بان، واتَّضحَ أنَّه هلاكُ الاستئصال، فكذلك الهلاكُ الذي في هذه الآية، فيُقال في حَقِّهِ: هلاكٌ، ولا يقال: تدميرٌ.

الظُّلمُ والطُّغيان:

الظُّلم هضمُ الحَقِّ، والطُّغيان المجاوزة والمغالاة بالكفر والعصيان

أصلُ الظُّلم: نُقْصانُ الحَقِّ، ونقيضُه الإنصاف، وهوَ إعْطاء الحقِّ على التَّمام[1]، أمّا الطُّغيان: فهو مُجاوَزَةُ الحَدِّ في العِصْيانِ[2]، أو جاوَزَ القَدْرَ، وارْتَفَعَ، وغَلا في الكُفْرِ[3]، فالظُّلمُ هضمٌ للحَقِّ، أمّا الطُّغيان؛ فمجاوزةُ الحَدِّ والمُغالاةُ في العِصيان والكُفران.

وقد آثَرَ النَّظمُ الجليل التَّعبيرَ بالظُّلم؛ لأنَّه بمعنى الشِّرك، وهو وضعُ الشَّيء في غير مكانه، ونقصانُ الحَقِّ، وهذا يُعَبَّر عنه بالظُّلم لا بالطُّغيان، ولأنَّ المقصود مِن المُخاطَبين الكافرين الرَّغبةُ في الإيمان، والإعراضُ عنِ الكُفران؛ ولهذا وصَّلَ تعالى القولَ إليهم؛ لعلَّهم يتذكَّرون، فيؤمنون به.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 231 - 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغى).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (طغي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والأربعون،
سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 41 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-92-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 41 : المجلد الحادي والأربعون، سورة القصص من الآية 21 إلى سورة العنكبوت الآية 03.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-92-1
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-2914887 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»